

شيء وكيل. روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة^(١).

وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة، وقد قدما أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم^(٢).

آخر سورة براءة والله الحمد والمنة

تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴿٢﴾
أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين.

[لا يكون الرسول إلا بشراً]

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَشْرَرُ مَبْدُونًا﴾ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأُمَمَةَ لَهَا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَنُصُوءٌ مِّمَّا بَدِئْنَا بِهِ﴾ وقال الضحاک عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكروا منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية^(٣). وقوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول^(٤). وقال العوفي عن ابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِنَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴿٦﴾

عباس: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجراً حسناً بما قدموا. وقال مجاهد: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة: صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسيبهم - قال: - ومحمد ﷺ يشفع لهم^(٥). وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) ﴿٣﴾

[الله خالق الكون وربّه والمتصرف فيه]

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم (١) أحمد: ١١٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٩٥/٨ (٣) الطبري: ١٣/١٥ (٤) الطبري: ١٥/١٥ (٥) الطبري: ١٤/١٥

جَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم ﴿٥﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ﴿٥٨﴾، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيمٍ وَأَنْبَاقٍ ﴿٦٠﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ السَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النِّجْمِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَّقُونَ ﴿٦٠﴾﴾

[كل شيء شاهد على قدرة الله]

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل شعاع القمر نوراً، وهذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثيها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ ﴿٦٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴿٥٩﴾﴾ الآية، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَرَهُ ﴿٥٩﴾﴾ أي القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النِّجْمِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فتنقل الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكبير ﴿٥٨﴾ وقوله: ﴿فُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُنْفِثُ الرِّيحَ وَالنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمِ الْإِسْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ الآية،

كألف سنة مما تعدون، كما سيأتي بيانه، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يدبر [أمر] الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بالاحاح الملحجين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية. ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ رَوْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾﴾ وقال الدراوردي عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال: حين نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضْوَانًا ﴿٦١﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله لها غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ جَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

[مرجع الجميع إلى الله]

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفَعِّي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ أَلَسَاءَ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول، وقال ههنا: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالْآيَاتِ هُمْ عَنْ مَا بَيْنَنَا وَعَنَّا﴾ (٧) ﴿أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْفِرُونَ﴾ (٨)

[ماوى منكري الساعة جهنم]

يقول تعالى محبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا ببقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشريعة فلا ياتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ مَأْمُوتًا وَعَدُولًا الْمَضْلِكَةِ يَدِيدُهُمْ رُؤْيُهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ الْإِيمَانِ﴾ (٩) ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَمْدُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

[الجزء الحسن لأهل الإيمان والعمل الصالح]

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم: حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَدِيدُهُمْ رُؤْيُهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به^(١)، وقوله: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَمْدُكَ فِيهَا سَلَامٌ، وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي:

هذا حال أهل الجنة. وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومَتُ سَلَامٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً وَلَا تَأْتِيماً﴾ (١١) ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ (١٢) وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (١٣) وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٤) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو الم محمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿لَعْنَتُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿لَعْنَتُ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه الم محمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة [وأي جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الشَّيْخَ وَالْحَمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ»^(٢)]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَةً سَمِعْتُمْ لَهُمُ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَعْوَابَهُمْ فَذَرُوا الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ بِمَعْتَدٍ﴾ (١١)

[لا يستجيب الله دعاء الشر مثل استجابته دعاء الخير]

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد [بالشر] إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم، والحالة هذه، لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَةً سَمِعْتُمْ لَهُمُ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَعْوَابَهُمْ﴾ الآية، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ

لَكُمْ». ورواه أبو داود^(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية ﴿وَلَوْ يَعْمَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه^(٢). فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ أَهْلِيهِ أَوْ قَوْمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسْئِهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣)

[الإنسان يذكر الله عند الشدة وينساه عند الرخاء]

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله: ﴿وَإِذَا مَنَّ الشُّرُّ فَدُو دُعَاءِ عَرِيضٍ﴾ أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها، وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسْئِهِ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفة وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وكقول رسول الله ﷺ: «عَجَبًا [لِأَمْرِ] الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٤).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٥) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٦)

[العبرة بإهلاك القرون الأولى]

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ

الْبَيِّنَاتِ

٢٠٩

سُورَةُ يُونُسَ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَاوَرِضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَانَهُمْ فِيهَا سَمِعْنَاكَ اللَّهُمَّ وَحَيْثُ هُمْ فِيهَا سَلَّمَ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴿وَلَوْ يَعْمَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَندَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١١) وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ أَهْلِيهِ أَوْ قَوْمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسْئِهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

فيها، فَنَظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»^(١٤) وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً ذلي من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد، فانتشط أبو بكر، ثم ذرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاثة أذرع حول المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك؟ قال: ويحك إني كرهت أن تنعي لخليفة رسول الله ﷺ نفسه، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال: أما إحداهن فإنه كان خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ

(١) أبو داود: ١٨٥/٢ (٢) الطبري: ٣٤/١٥ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٥ (٤) مسلم: ٤/٢٠٩٨

بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢١٠

سُورَةُ يُوسُفَ

وَأَذَانُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِشَرِّءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَسْبَحُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَيْتُوكُم اللَّهُ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِّن رَّبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة (٣).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجراماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظملاً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبهه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدتهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حُدس

(١) الطبري: ٣٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٨٢/٨ (٣) أحمد:

٢٠٢/١

بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ فقد استخلفت يا ابنِ عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: فإني لا أخاف في الله لومة لائم فما شاء الله! وأما قوله: شهيد، فإني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به؟ (١)

﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِشَرِّءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَسْبَحُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[بيان تعنت رؤساء قريش]

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله، وحججه الواضحة قالوا له: انت بقرآن غير هذا، أي رد هذا وجننا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَسْبَحُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به:

[ثبوت صدق القرآن]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي ولا افتريته: أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون علي شيئاً تعمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء. فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليُدَّعِ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله (٢). وقال جعفر بن أبي

أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٨﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاء به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه.

﴿وَسَبُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أُمَّتٌ وَاحِدَةٌ قَالُوا كَلِمَةً وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[ما يعتقد المشركون في آلهتهم]

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فآخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟^(٤) ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[الشرك حادث]

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام^(٥)، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين.

الظلماء، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجّاح والأسود العنسي.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١) ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله - فيما قال له - من رفع هذه السماء؟ قال: «الله» قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال «الله» قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله» قال: فبالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه^(٢).

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ، في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال يا وُبر! يا وُبر! إنما أنت أذنان وصدر، وسائرُك حفرٌ تُقَر. كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب^(٣).

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجج؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنَبِّئُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَمَنْ

(١) أحمد: ٤٥١/٥ (٢) انظر زاد المعاد: ٦٤٧/٣. وأصل القصة في البخاري: ٦٣ ومسلم: ١٢ وغيرهما. (٣) البداية والنهاية: ٣٢٦/٦ (٤) الطبري: ٤٦/١٥ (٥) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

سألوهم، لأنه لا فائدة في جوابهم، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَدْنَا لِلنَّاسِ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكْتُبُوكُمْ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الظُّلِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَبْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ العِلْمِ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الحِكْمَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ أَلَيْنَا سُرْحَمَكُمْ فَنَبِّئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

[تقلب الإنسان حين تصبيه الرحمة بعد الضر]
يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب^(١) كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل، أي مطر، ثم قال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطْرِنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطْرِنَا بِتَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(٢) وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أشد استدراجًا وإمهالًا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصىونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير والفقير والغني.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الظُّلِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي يحفظكم ويكلوكم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي بسرعة سيرهم رافقين، فيبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي تلك السفن ﴿رِيحٌ

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّي قُلْ إِنَّمَا اللَّغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠﴾﴾

[طلب المشركين آية]

أي يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُوزًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَعَتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ وكقوله: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية، يقول تعالى: إن سئتي في خلقي أي إذا أتيتهم ما سألوها، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوها، فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوها: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا اللَّغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور.

﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم، فانظروا حكم الله فيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوها حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إيداره فانشق فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوها وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوها ذلك استرشادًا وتثبيتًا لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعتنًا فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَسَادَتِ أَرْضُهُمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ المَالِكِيْنَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الآية، ولما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ زَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرْعَوْنَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما

عاصفٌ ﴿٢١﴾ أي شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي اغتم البحر عليهم ﴿وَوَطَّئُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي هلكوا ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردون بالبدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٢٢﴾﴾ وقال ههنا: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيبْتَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي هذه الحال ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لا نشرك بك أحداً، ولنفردك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالبدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمُ﴾ أي من تلك الورطة ﴿وَإِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي كان لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تصرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(١) وقوله: ﴿مَتَّعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا مُرْتَابًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾

[مثل الحياة الدنيا]

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرج الله من الأرض، بماء أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آبٍ وقضبٍ وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي زينتها الفانية ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان

وَإِذَا دَقَّقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذِ الْهُم مَكْرُوفٌ ﴿٢١﴾ أَيَاتِنَا قَلِيلٌ وَاللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ يَبْرِجُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَاوِيحُ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَوَطَّئُوا أَنفُسَهُمْ يُدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيبْتَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَجْتَهُمُ إِذِ هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا مُرْتَابًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا﴾ أي على جذاتها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَتْهَا مُرْتَابًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ﴾ كان لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ولهذا جاء في الحديث «يُؤْتَى بِأَتَمِّ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُغَمَّسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا، فَيُغَمَّسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا»^(٢) وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْحَابُهَا فِي دَرَجَتِهِمْ جُنُودٌ ﴿٢٥﴾ كَأَن لَّمْ يَتَّقُوا فِيهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ﴾ أي: نبين الحجاج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، وتفلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هُبُوبًا نَّذِرُوهُ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٤٥) وكذا في سورة الزمر والحديد، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.

[الترغيب في النعم الدائمة التي لا زوال لها]

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ الْأَلْبَابِ﴾ الآية. لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنيكات فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ الْأَلْبَابِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيْلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اسْمَعْ، سَمِعْتُ أذُنَكَ، وَاعْقِلْ، وَعَقَلَ قَلْبُكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَىٰ فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدِبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَن أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَن تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا» رواه ابن جرير (١). وعن أبي الدرداء مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَجَنَّتْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ بِسَمْعِهِ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَاللَّهِ» قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ الْأَلْبَابِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (٢).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣١)

[أجر المحسنين]

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣١) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قَطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْتُمْ بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُونَ﴾ (٣٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾ (٣٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٤٠) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٤١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٤٢) حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٣)

والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٢٦) وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيه الله في الجنان من القصور والحدود والرضى عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلهم ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم (٣) من السلف والخلف. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن

(١) الطبري: ٦١/١٥ (٢) الطبري: ٦٠/١٥ وأحمد: ١٩٧/٥

(٣) الطبري: ٦٨-٦٣/١٥

يَوْمَ يُسْفَرُ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةً مُتَشَبِّرَةً ﴿٢٩﴾ وَوَجْهًا يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾
الآية .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ
وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّتْا بَيْنَهُمْ وَوَال شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَانَا تَصِدُّونَ ﴿٢٨﴾
فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلًا ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُلُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[تبري آلهة المشركين منهم يوم القيامة]

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٨﴾﴾، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي الزموا أنتم وهم مكانا معينًا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّنُوا أَيَّامَ آيَاتِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَشَفَعُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وفي الآية الأخرى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ أي يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ولهذا

قيل ذلك... (٣) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر «نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُورٍ فَوْقَ النَّاسِ» (٤) وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّتْا بَيْنَهُمْ وَوَال شُرَكَاءُهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله: ﴿كَلَّا سَكَفَرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَفِلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وَإِذَا خِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ الآية، وقوله في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم، والله شهيد بيننا وبينكم، أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي في

النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنِي وَرِيسَادَةً﴾ وقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنْ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزْكُمْوهُ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ أَلَمْ يُقْبَلْ مَوَازِينًا؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وَجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ - قَالَ - : فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقْرَبَ لِأَعْيُنِهِمْ» (١) وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة. (٢)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْقُ وَجُوهُهُمْ قَتْرًا﴾ أي قمام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القفرة والغبرة ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي هوان وصغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ يَصْعَدُ النَّارُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ أي نصرة في وجوههم وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته أمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِيَسْئَلِهَا وَزَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قَطَلًا مِنْ أَلْبَلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَحْصَى النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

[جزاء المجرمين]

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك ﴿وَزَهَقَهُمْ﴾ أي تعثرهم وتعلوهم ﴿ذَلَّةٌ﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وَتَرْتَبُّهُمْ يِعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْصُرِبْ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٢٤﴾﴾ مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الآيات، وقوله: ﴿مَّا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي مانع ولا واق يقبهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُوءُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ﴾ الآية، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُ وَوَسَّوْدٌ وَوَجُوهُ فَأَمَّا الَّذِينَ آسَدَتْ وَوَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بِمُنِّكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ وَوَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ

(١) أحمد: ٤/٣٣٣ (٢) مسلم: ١/١٦٣ وتحفة الأحوزي: ٨/٥٢٢ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٦١ وابن ماجه: ١/٦٧ (٣) هنا بياض في الأصل (٤) مسلم: ١/١٧٧

ذلك ويعترفون به. ﴿فَقُلْ أَفَلَا لَتَقُونُ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟ .
 وقوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الآية، أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم واليهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟ وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية، أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْفَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْفَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُبْعَثَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَمَا يَبْعَثُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طَغًا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

وهذا يبطل لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْفَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم يشيء ما فيهما من الخلاق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلها ببناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا ﴿قُلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا، وَيَسْتَقِلُّ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحبارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُبْعَثَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ أي أفتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى - أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَتَّبِعْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبِّئُ الْكَافِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنسَانَ بِيَوْمِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْورًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَذَابًا حَسِيبًا﴾ ﴿١٤﴾ وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لَتَقُونُوا﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

[اعتراف المشركين بتوحيد الله في ربوبيته، وإقامة الحججة عليهم بذلك]

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿حَبًّا﴾ ﴿١٧﴾ وَعَنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿١٩﴾ وَصَدَاقًا غَلِيظًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَنَكْهَةً وَأَبَا﴾ ﴿٢١﴾ إله مع الله؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أَمَّن هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ الآية. وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العيمة، وقوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿يَسْتَلْهُمْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٣١﴾ فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي وهم يعلمون

يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٣٧﴾ وقال لقومه: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم؟ كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة، بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإجابة، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعد شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصْرٌ لِرَبِّكَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَفْضَلْ أَنْ يَدْرُسَ الْعُرْفُوفَ فَإِنَّهَا بِرَأْسِهِمْ تُوقَظُ لَهُمْ وَنُقُلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾

[القرآن كلام الله حقاً، وبيان إعجازه]

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتيوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِنْ نَصْرٌ لِرَبِّكَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليه، ومُبيّناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلٌ لِكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ أي إن ادعيتم وافترتيم وشككتم في أن هذا من عند الله وقلتم كذباً وميئناً: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهمَ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهمَ فَإِنْ تَوَفَّكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ الْأَطَّانُ إِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصْرٌ لِرَبِّكَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُظْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَفْضَلْ أَنْ يَدْرُسَ الْعُرْفُوفَ فَإِنَّهَا بِرَأْسِهِمْ تُوقَظُ لَهُمْ وَنُقُلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمَنْ يَفْضَلْ أَنْ يَدْرُسَ الْعُرْفُوفَ فَإِنَّهَا بِرَأْسِهِمْ تُوقَظُ لَهُمْ وَنُقُلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾

القرآن، فأتوا أتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان. وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَعِتَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿٣٨﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية، تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ﴾ الآية،

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله مالا قبيل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبده الله ورسوله. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا» (١).

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ لَمَّا بَأْتَهُمْ فَأَوْبَلَهُمْ﴾ يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا بَأْتَهُمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًا وكفرًا وعنادًا وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كل ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَأَن كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَن تَرَوْنَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الْأَلْمُومَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْقَرُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَارَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّقُكَ فَإِنَّا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ هَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَعْرِفُونَ أَمَا وَقَعْنَا مِنْكُمْ فِي الْعَذَابِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَسْتَوُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ

[الأمر بالتبري من المشركين]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون فبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ لِّكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التوادة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك

خَيْرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلِيَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكَذِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَأَمَّا رُزْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّمْ أَوْ نَتَّقُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

[لينتقم من المجرمين سواء في الدنيا أو في الآخرة]
يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا رُزْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّمْ﴾ أي نتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَتَّقُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها: من خير وشر، موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة بفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَحْنُ الْأَخِيرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُقْضِي لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» ﴿٣٧﴾ فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ قُلْ لَا أَمَلٌ لِّي فِئْتَىٰ صَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِينُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُهُمْ يَنْتَهِرُوا أَوْ نَهَارًا مَادًّا يَسْتَعِجِلُونَ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أَمْ إِنْ مَا وَقَعَ مَا أَنْتُمْ بِرُءُوفٍ مَّا تَقْنُ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

[استعجال المنكرين بيوم القيامة وجوابهم]

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾

(١) مسلم: ٤/١٩٩٤ (٢) الطبري: ١٥/٩٩ (٣) فتح الباري:

٥٩٥/٦ ومسلم: ٥٨٥/٢

لأولي البصائر والنهي. وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخُدُّونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية.

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى، ولبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا - إِلَىٰ أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُخَمِدِ اللَّهُ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلم بطوله (١).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ

خَيْرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

[الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر]

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ الآية. كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ نَهَارٍ﴾ وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ ﴿٤١﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الضُّورِ وَيَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٤٢﴾﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٤٣﴾﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْأَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٤٥﴾﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا يُفْعَخُ فِي الضُّورِ فَلَا أَنْصَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ الآيات، وقوله: ﴿قَدْ

وفي التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذَّبَ قُلُوبَنَا وَرَبِّي لِأَشْتَعَنْ نَمًّا لَبِئْسَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَبِئْسَ ﴿٧٧﴾ ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق ﴿وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ

رُجِعُوكُمْ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

[القرآن موعظة وشفاء ورحمة وهدى]

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رفس وذنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية

الذاهبة لا محالة، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَسَلَامًا قُلْ لِلَّهِ أَذِنٌ لِّكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَفْهُوتَ ﴿٥٩﴾ وَمَا عَلَنُ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

[ليس لأحد سوى الله أن يحل أو يحرم شيئاً]

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقاتدة وعبد الرحمن

وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لِحَقٌّ﴾ أي كائنة لا محالة، وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْرَ لِي بِعَيْبِكُمْ وَلَا أَقْدَرُ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَظْلِعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، فإنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يظلعني على وقتها ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية.

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابًا بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلاً أو نهاراً ﴿مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَدْرَأُ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنُكُمْ بِيَوْمِ الْعَذَابِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثِ رَسُولِنَا إِنَّمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ مُمِشِكِينَ ﴿٨٦﴾ فَلَمَّا يَكُ يَفْعَلُهُمْ إِنِّي لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلْتُ اللَّهَ أَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَةٍ وَخَيْرٍ هُنَالِكَ الْكُفْرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتم وتقرئوا كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكْفِرُونَ ﴿٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ أَصَلَّهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحِزُّونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَسْتَشْفِقُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴿٥٤﴾

[القيامة حق]

يقول تعالى ويستخبرونك ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي المعاد والقيامة من الأحداث بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِرِينَ﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيات أخر بيان بأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٥

سُورَةُ يُونُسَ

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقِضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يظلمون ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآنَ
وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ فَدَجَاءَ تَكُم مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَقَرُّونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في
السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في
كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْتَعْطِ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا حَبَّةَ فِي ظُلْمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من
الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِنْ
دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّتْنَا لَهُمُ الْآيَةَ،
وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾
الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف
علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال
تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٧٧﴾ الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٧٨﴾ وَتَقْبَلُكَ فِي السَّجْدِ ﴿٧٩﴾﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا
تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

ابن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين
فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب
والوصايل^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
الْحَبْرِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآيات، وروى الإمام
أحمد: عن مالك بن نضلة قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا
رث الهيئة فقال: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قلت: نعم. قال:
«مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قال قلت: من كل المال: من الإبل
والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرِّ
عَلَيْكَ» - وقال: «هَلْ تُنْتِجُ إِلَيْكَ صِحَاحًا آذَانَهَا، فَتَعْمِدُ
إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بَحْرٌ، وَتَشُقُّ
جُلُودَهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرْمٌ، وَتَحْرِمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى
أَهْلِكَ؟» قال: نعم، قال: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ،
سَاعِدَ اللَّهُ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ
مُوسَاكِ»^(٢) وذكر تمام الحديث. وهذا حديث جيد قوي
الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل
ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل
عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ
الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ما ظنهم أن
يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه
معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا^(٣) ﴿قلت﴾ ويحتمل أن يكون
المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من
المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم
في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل
يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم،
فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه
المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما
ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن
مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

[كل صغير وكبير في علم الله]

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته
وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا

(١) الطبري: ١١٢/١٥، ١١٣ (٢) أحمد: ٤٧٣/٣، ٤٧٣/٤، ١٣٦/٤

(٣) الطبري: ١١٣/١٥

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم، راعون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٢)
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾

[معرفة أولياء الله]

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسّر بهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً في ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يُغِيظُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ» قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٢) (٢).

[المراد بالبشرى الرؤيا الصادقة]

روى ابن جرير عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» فقد عرفنا بشرى الآخرة، الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ أَوْ تَرَى لَهُ. وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(٣) وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويشنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٤) رواه مسلم^(٥)، وروى أحمد أيضًا عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» - قال: - «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَبْشُرُهَا الْمُؤْمِنُ، جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ، فَصَنَ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ يُحْزِنُهُ، فَلْيَنْتَفِ عَنِّ يَسَارِهِ فَلَنَّا، وَلْيَكْبِرْ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»^(٦) لم يخرجوه. وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند

الَّذِينَ آمَنُوا

٢١٦

سُورَةُ يُونُسَ

الآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ الْآيَاتِ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُجْرِبًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلِ إِبْرٰهٖمُ الَّذِي يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَتْ لِآبَائِهِمْ مِمَّا يُدْفِقُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»^(٣٠) هُنَّ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلَا مِنْ غَفْوَةٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وفي حديث البراء رضي الله عنه: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ بِيضُ الثِّيَابِ فَقَالُوا: اخْرُجِي أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ إِلَى رَوْحِ رَبِّكَ: وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ، فَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ»^(٧)، وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١٢) وقال تعالى: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْسَابِهِمْ بُسْرَتِكُمْ يَوْمَ

(١) مسلم: ٣٧/١ (٢) الطبري: ١٢٠/١٥ (٣) الطبري: ١٥

١٣٢ (٤) أحمد: ١٥٦/٥ (٥) مسلم: ٢٠٣٤/٤ (٦) أحمد:

٢١٩/٢ (٧) أحمد: ٢٨٧/٤

الْأَرْضِ ﴿ أَي كَيْفِ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِمَّا خَلَقَ، وَكُلِّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ، عُدْلُهُ ﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانِنَا بِهَذَا ﴾ أَي لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إِنكَارٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ وَتَهْدِيدٌ

شَدِيدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنِّي وَنَشُقُّ الْأَرْضَ وَنَحْنُ الْمُبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَدْعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِدًّا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ مَأْتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ثُمَّ تَوَدَّ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ الْمَفْتَرِينَ -

مِمَّنْ زَعَمَ أَنْ لَهُ وَلَدًا - بَأَنَّهُمْ لَا يَفْلَحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ مَتَعَهُمْ قَلِيلًا ﴿ ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى ههنا: ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَي مَدَّةً قَرِيبَةً ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ نُذِيهِهُمْ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أَي الْمَوْجِعَ الْمُؤَلِّمَ ﴿ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أَي بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكُذْبِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْا مِنَ الْإِفْكَ وَالزُّورِ.

﴿ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ بُعَاثٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ يَتَقَوْمِهِمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا تَعَلَّقَ اللَّهُ قَوْلَهُ تَوَكَّلْتُ فَإِجْمَاعًا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْهِمْ غَفَاةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُظِرُّونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنِّي إِجْرًا إِنْ أُجْرِي إِلَّا عَلَيَّ اللَّهُ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَالِكِ وَجَمَلْتُهُمْ خَلْقِي وَأَفْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِيْتَانِي فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[قصة نوح مع قومه]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي أَخْبَرَهُمْ وَأَقْصَصَ عَلَيْهِمْ، أَي عَلَى كِفَارِ مَكَّةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ وَيَخَالِفُونَكَ ﴿ بُعَاثٌ نُوحٌ ﴾ أَي أَخْبَرَهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَرَهُمُ بِالْعُرْقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرِهِمْ، لِيَحْذِرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَبْصِيَهُمُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدِمَارِ مَا أَصَابَ أَوْلَادَكَ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ يَتَقَوْمِهِمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿ مَقَامِي ﴾ أَي فِيكُمْ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ﴿ وَتَذِكْرِي ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿ بِمَا تَعَلَّقَ اللَّهُ ﴾ أَي بِحُجْجِهِ وَبِرَاهِينِهِ ﴿ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَي فَإِنِّي لَا أَبَالِي وَلَا أَكْفُ عِنْدَكُمْ، سِوَاءِ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿ فَأِجْمَاعًا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أَي فَاجْتَمَعُوا أَنْتُمْ

جَعَلْتُمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَنْتَهُنَّ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿٧٣﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أَي هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُخْلَفُ وَلَا يُغَيَّرُ، بَلْ هُوَ مَقْرَرٌ مُثَبَّتٌ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٧٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْبَيْتَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[العزة لله جميعًا، وهو المتصرف في الكون]

دون غيره

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ ﴾ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ ﴿ إِنْ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَي جَمِيعَهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَي السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مَلِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا ضَرْمًا وَلَا نَفْعًا، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظَنُونَهُمْ وَتَخْرُصَهُمْ وَكُذْبَهُمْ وَإِفْكَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، أَي يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَي مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعِيهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ أَي يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجْجَ وَالْأَدْلَةَ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَدْلُونَ عَلَى عَظْمَةِ خَالِقِهَا وَمَقْدَرِهَا وَمُسِيرِهَا.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَلِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْعَلُونَ ﴿٨٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

[الله منزله عن الزوجة والأولاد]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ لَهُ ﴿ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أَي تَقَدَّسَ عَنِ ذَلِكَ، هُوَ الْغَنِيُّ عَنِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلِّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

وذلك معنى قوله: «أَوْلَادٌ عَلَاتٍ» وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

[عاقبة المجرمين السيئة]

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي على دينه ﴿فِي الْفُلِّ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ أي يا محمد! كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِهِمْ بِأَلْبَابٍ مِمَّا كَانُوا يَلْتَمِئُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ

الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات، أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به ﴿فَمَا كَانُوا يَلْتَمِئُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلمهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام^(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ غَنَةً﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افضلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكُم محقون فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُظْهِرُونَ﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبا لكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآسِهْدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ من دُونِي فَكَيْدِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية.

[الإسلام دين الأنبياء]

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجْرٍ﴾ أي لم أطلب على نصحي إياكم شيئاً ﴿وَإِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن عباس: سبيلاً وسنة^(١)، فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾ وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلَأِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وقال موسى: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَوْرِقْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِّئْتُ مِنْكُمْ وَأَنَا أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادٌ عَلَاتٍ. وَدِينُنَا وَاحِدٌ» أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا،

(١) الطبري: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٣) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[قصة موسى وفرعون]

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق والانتقاد له وكانوا قوماً مجرمين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٥﴾﴾ كأنهم - قبحهم الله - أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَفْسَفَتْهَا أَنفُسُهُمْ فَلَمَّا وُطئُوا﴾ الآية ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكراً عليهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا﴾ أي تنيننا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ﴾ أي لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّذُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[بين موسى والسحرة]

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة، وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبدين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار، على رسول الله [الله] عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب

﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ بَأْسُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا إِنْ كَانَ كِبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِعَابَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْءُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

النار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا، وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعتاء الجزيل ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ فأراد موسى أن تكون البداية، منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم.

ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿فَأَرْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَافًا مَصْنُوعًا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٨١﴾﴾ فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّذُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَمَا زَمَنَّ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْبَلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

[لم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا ذرية]

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية - وهم الشيب - على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون - لعنه الله - كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون بسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه (١).

وأما بنو إسرائيل فالمعروف أنهم كلهم آمنوا بموسى عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون، ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر، فلم يُجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَنِّي رَبُّكُم أَن يُهْلِكَ عُدُوكُم وَاسْتَغْلِبَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣٦) ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿قَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) ﴿قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَجِنَّا رَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) [تحرير موسى قومه على التوكل على الله]

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١) وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) وقد امثال بنو إسرائيل ذلك فقالوا:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقُوا مَا أُنْتُمْ مُلقُونَ﴾ (٨٠) ﴿فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَانِ اللَّهُ سَيُطْلِعُهُ إِنَّا لِلَّهِ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) ﴿قَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) ﴿قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَجِنَّا رَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُ بِيُونَا وَاجْعَلُوا يَدَيْكُم قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧) ﴿قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا طَمَسْنَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّوا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨)

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى (٢)، وروى عبد الرزاق عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا (٣). وقوله: ﴿وَجِنَّا رَحْمَتِكَ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُ بِيُونَا وَاجْعَلُوا يَدَيْكُم قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

[أمرهم بالصلاة في البيوت]

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا أي يتخذا (١) الطبري: ١٦٤/١٥ (٢) الطبري: ١٦٩/١٥ (٣) عبد الرزاق: ٢٩٧/٢

لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي آمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآية، أي كما أجبت دعوتكما فاستقيما على أمري، قال ابن جريج عن ابن عباس: فاستقيما فامضيا لأمرى، وهي الاستقامة^(٧).

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَئِيًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ مَا مَثَ أَنتَ إِلَّا إِلَهَ آلِ الَّذِينَ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩١﴾ قَالِمْ تَسْجِيكَ يَدَبِكَ لَتَكُونُ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَيْدًا لَمِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَعَفْلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[نجاة بني إسرائيل وغرق آل فرعون]

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى عليه السلام، وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًا كثيرًا، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المداخن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة، لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالُ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١١﴾﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إنني أمرت أن أسلك ههنا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقًا لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخَشْيَةً ﴿١٧﴾﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك، ليرى كل قوم الآخرين، لثلا يظنوا أنهم هلكوا. وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم

لقومهما بمصر بيوتًا، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلُوا يُيُوتِكُمْ قَيْلًا﴾ وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة^(٨)، وقال مجاهد: ﴿وَأَجْعَلُوا يُيُوتِكُمْ قَيْلًا﴾ لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرًا^(٩)، وكذا قال قتادة والضحاك^(١٠).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَأْتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَ أَمْوَالَهُمْ وَاشدَّدْ عَلَيْنَ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَمَنَّآ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَسْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

[دعاء موسى على فرعون وملته]

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملته لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًا، وتكبرًا وعتوًا، قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَأْتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجًا منك لهم. كقوله تعالى: ﴿لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ وقرأ آخرون لِيُضِلُّوا بضم الياء، أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها^(٤)، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت^(٥).

وقوله: ﴿وَاشدَّدْ عَلَيْنَ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها^(٦) ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملته الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا ﴿٦١﴾﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فٰجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾﴾ ولهذا استجاب الله تعالى

(١) الطبري: ١٧٤/١٥ (٢) الطبري: ١٧٤/١٥ (٣) الطبري:

١٧٣/١٥ (٤) الطبري: ١٨١/١٥ (٥) الطبري: ١٨٠/١٥

(٦) الطبري: ١٨١/١٥ (٧) الطبري: ١٨٧/١٥

وهلاكه^(٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِيَدِكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك^(٥) وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية

كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «مَا هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ»^(٦).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا أَلْبَسْتَبْتِ قَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْدَانُ إِنَّ رَبَّكَ بِبِقْيِ بَيْنَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمِينًا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٧)

[تمكين بني إسرائيل من الأرض ورزقهم من الطيبات]

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوَمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَظْفِرُونَ مَشْرُوكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٨) وقال في الآية الأخرى:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَابِرَ كَثِيرَةٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٩) وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١٠)

الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن

منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله، وأحجم وهاب، وهم بالرجوع وهيهات، ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجبت الدعوة.

وجاء جبريل عليه السلام على فرسٍ وديقٍ حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون، فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمراته، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم يتج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(١١) فَلَمْ يَكْ يَفْعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾^(١٢) ولهذا قال

الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي أهدأ الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَكْوَرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾^(١٣) وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا، في حاله ذلك، من أسرار

الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ، ولهذا روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيْلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخِذٌ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةً أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»^(١٤) وقد رواه أبو عيسى

الترمذي^(١٥) وابن جرير^(١٦)، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِيَدِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويّاً بلا روح، وعليه درعه المعروفة، على نجوة من الأرض، وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته

(١) مسند الطيالسي: ٣٤١ (٢) تحفة الأحوزي: ٥٢٦/٨ (٣)

الطبري: ١٩١، ١٩٠، ١٥ (٤) الطبري: ١٩٦/١٥ (٥)

الطبري: ١٩٧/١٥ (٦) فتح الباري: ١٩٨/٨

نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها حيناً من الزمان.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَنَ الْجَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمَسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَي مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، أَي وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلَفُوا وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ اللَّبْسَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَىٰ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قِيلَ: مِنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَي يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهُ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

الأليم (٩٧)

[تصديق القرآن في الكتب السابقة]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك، ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) أَي لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَّتْهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّيْثِ لَعَلَّ قُلُوبُنَا نَعْقِلُ﴾ (١٠٨) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١) ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَمَعْنَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَعْنًا مَّامُونًا﴾

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَمَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٩٨) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَعْيًا وَعَدَدًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرِيقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٩) ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (١٠٠) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ (١٠١) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَارَ مِثْرَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٠٢) فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٠٣) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهُ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٠٤) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٥) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٠٦)

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٠٧)

[لم ينفع الإيمان عندما جاء العذاب إلا قوم يونس]

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكاملها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يُأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢٠) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ﴾ (٥١) ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْكُفْرِ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا نُرْسِلُهُمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (٣٣) وفي الحديث الصحيح: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ يُرْمَىٰ مَعَهُ الْفَتَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يُرْمَىٰ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» (٢)

ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخاققين الشرقي

(١) الحاكم: ١٢٩/١ (٢) فتح الباري: ١٠/٢٢٤

سورة يونس

٢٢٠

سورة يونس

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٩﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ نَبَّحْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسِجَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَأَنْ أَعْبُدَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾

مُذَكَّرًا ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هُدي وإضلال من ضل.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ نَبَّحْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسِجَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

[الأمر بالتفكير في خلق السماوات والأرض]

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آياته وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما

والغربي، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب، وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، فذف الله في قلوبهم التوبة، وليسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم. قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل^(١) وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف^(٢).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

[ليس من حكمة الله أن يكره الناس على الإيمان]

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جتتهم به، فأمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّةٍ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿لَتَكَلِّمُنَّ عَنْكَ أَهْلًا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ

وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكِبُ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
الَّتِي تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعْكُمْ مِّنْعَاحَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ الْإِنَّمَاءُ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الْأَجِينَ لَسْتَغْشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الْأُصْدُورِ ﴿٥﴾

التي تدعون من دون الله حقًا فأن لا أعبدها، فادعوها فلتضرنني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الآية أي أخلص العبادة لله وحده حنيفًا، أي منحرفًا عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَصْرًا﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشو والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾

في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخرٌ مذل للساكنين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُعْنِي الْأَيْتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني [تجدي] الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله ﴿إِنَّ الْأَيْتُ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ الآية. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِهِ الْأَيْتُ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من العقوبة والعذاب: إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ نَجَّيْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسول ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقًا أوجه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي سَلْبٍ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الْقَالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾

[الأمر بعبادة الله وحده والتوكل عليه]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل يا أيها الناس! إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الخفيف الذي أوحاه الله إلي فأن لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم

إِلَّا نُوحِيْ إِلَىٰ إِلَهِ إِلَهِ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي لَكُرْمَنَةٌ نَّذِيرٌ وَمُنذِرٌ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالشواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح؛ أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» (٣) وقوله: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُسَيِّئْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَٰك أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله عز وجل، فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿بِئْسَ لَكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا﴾ أي في الدنيا ﴿إِلَٰك أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي في الدار الآخرة. قاله قتادة (٤).

كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَشْفُونَ

يَأْبَاهُمْ يَعْلَمُ مَا يَكْتُمُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا عَظَّمَ يَدَاتِ

الضُّدُورِ ﴿٥﴾

[الله خبير بكل شيء]

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. روى البخاري من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ: (ألا إنهم تتشؤون صدورهم) الآية فقلت: يا أبا العباس! ما (تشؤون صدورهم)؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي فنزلت (ألا إنهم

(١) تحفة الأحوذى: ١٨٤/٩ (٢) الطبري: ٢٢٧/١٥ (٣)

دلائل النبوة: ١٨١/٢ (٤) الطبري: ٢٣١/١٥

يقول تعالى أمرًا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَنبِئْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِبِينَ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

تفسير سورة هود - عليه السلام - وهي مكية

[سورة هود مما شئت النبي ﷺ]

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت، قال «شيتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمٌ يتساءلون وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هودٌ وأخوانها» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكَ إِلَيْنَا فَمَا فُيَلَّتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُرْمَنَةٌ نَّذِيرٌ وَمُنذِرٌ ﴿٢﴾ وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُسَيِّئْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَٰك أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

[القرآن ودعوته إلى الله وحده]

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وباللغة التوفيق، وأما قوله: ﴿أُحْكِمْتَ إِلَيْنَا فَمَا فُيَلَّتْ﴾ أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ما روى عن مجاهد وقتادة (٢) واختاره ابن جرير. ومعنى قوله ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، خبير بعواقب الأمور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ